تأملات ابن رشيق الصائبة

فى تراثنا العربى تصور للشعر سبق به العرب كثيراً من الأمم ، وهو تصور جاد ومبكر يطلعنا على مدى ماكان عليه أصحابه من استنارة وحساسية وذوق على الرغم مما شاع فى تربيتنا الأدبية من مغالاة فى تبسيط الأمور إلى حد إفساد الذوق ، وعلى الرغم أيضاً مما شاع على صفحة إبداعنا ولاسيما فى عصور الانحطاط من ركاكة فى التعبير وقحط فى الفكر ؛ فما أكثر ما ربَّينا على تصورات مفسدة للذوق مثل قولهم : إن الشعر هو الكلام المنظوم المقفى !

غير أن هذا التصور الجاد المبكر لم يتح له – للأسف – أن يشيع ، وأن يتمكن من أذواقنا حتى يتطور بها ومعها ، ولم يتح له أيضا إلا نادراً ومؤخراً – من يتوفر عليه بالدرس والتنظيم والتنظير ، وكأنما ينطبق علينا ما قاله الجاحظ عن اللغة العربية حيث بلغت الأمصار وراح أهلها : « يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ، ولذلك تجد الاختلاف فى ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر »[1] : أى كما يقول الجاحظ أيضاً : « قد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ! والعامة ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفها ، وتستعمل ما هو أقل فى أصل اللغة استعمالاً ، وتدع ما هو أظهر وأكثر ! »[2] . . ذلك ما فعلناه خلال عصور طويلة حين رحنا نستخف مفاهيم وتصورات ركيكة عن الشعر ، واستعملنا ما هو أقل فى أصل الشعر استعمالاً وتركنا ما هو أضوأ وأجود !

وربما كان من نتيجة ذلك أن ما هو سليم وسديد قد أهمل وأغفل . ومع ذلك فكثير من كتب التراث القديمة حافل بالغث والسمين معاً ، وليس على قارئها إلا أن يكتشف بنفسه وأن ينقب عن السليم والسديد ؛ حتى يستخرجه من ركام الغث وغابات الثرثرة . وهذا ما سنحاوله هنا مع كتاب مشهور من كتب التراث ، وهو كتاب « العمدة فى محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيروانى »[3] .

وما نريد أن نكتشفه فى هذا الكتاب هو ذلك التصور الجاد والمبكر للشعر ، وهو تصور لا يمت لابن رشيق القيروانى وحده بمقدار ما يمت لعقلية عامة وذوق عام فى عصره ؛ وإنما يتمثل

---

(١) البيان والتبين : تحقيق وشرح حسن السندوبى ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٢٦ ، ج(١) ص٣٣ .

(٢) المصدر نفسه ص٣٤ .

(٣) تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . ط١ . مطبعة حجازى . القاهرة ١٩٣٤ .

فضل ابن رشيق فى أنه قام هو نفسه بما نقوم به الآن فى كتابه مع فارق واحد هو أنه جمع وأجلى وتخير مادة كتابه من العديد من الكتب التى سبقته أو عاصرته ، كما أنه كشف عن ذوقه الرفيع بهذا الاختيار للآراء والتصورات الخاصة بالشعر ، على حين أننا سنكتفى هنا بكتابه وحده باعتباره من أشهر الكتب العربية القديمة التى تخصصت فى الشعر .

وسنحاول السير فى الكتاب بجزأيه بحيث نتوقف عند الحديث والعصرى فى آرائه وأفكاره القديمة ؛ لنستخلص إطاراً عاماً لتصور بن رشيق وفهمه للشعر :

يروى ابن رشيق عن حسان ابن ثابت هذا البيت :

وإنما الشعر لب المرء يعرضه على المجالس إنْ كَيْساً وإن حمقا

(ص٩٦)

ومعنى البيت ببساطة أن الشعر معنى قبل أن يكون لغة أو صورة أو موسيقى ، وقبل أن يكون قائله حكيماً أو معتوها ؛ وهذا ما أخذت به واستقرّت عليه النظريات النقدية الحديثة فى أوربا أو غيرها ، يقول بن رشيق موضحاً بما لا يحتاج إلى تعليق :

وإنما سمى الشاعر شاعراً ؛ لأنه يشعر بمالا يشعر به غيره ، فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه ، أو استظراف لفظ وابتداعه ، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعانى ، أو نقص مما أطاله سواه من الألفاظ ، أو صرف معنى إلى وجه عن وجه آخر – كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة ، ولم يكن له إلا فضل الوزن ، وليس بفضل عندى مع التقصير (٩٩) .

غير أن المعنى لا يمكن أن يكون وحده قوام الشعر والإشاركه النثر فى ذلك ، وهذا ما يفطن إليه ابن رشيق حين يقول :

« الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء وهى : اللفظ والوزن والمعنى والقافية ، فهذا حد الشعر » (ص١٠١) : أى أنه لا بد من القصد إلى الشعر حتى لا يحسب من الشعر مايأتى موزوناً فى القرآن أو غيره ؛ مما اتزن فيه الكثير . وهذا منطق سديد فى الحقيقة لم يتوصل إليه أحد من المشرعين للشعر فى الثقافة الأوربية ، ويشكل فى الوقت نفسه فارقاً حاسماً بين الشعر والنثر . وقد بلغ من سداده أنه قدم النية على باقى عناصر الشعر التى يحتل المعنى المركز الثالث فيها .

وقبل أن يفصل ابن رشيق القول فى هذه العناصر أو المقومات يطرح قضية على جانب كبير من الأهمية . وهى قضية ثقافة الشاعر أو الخبرة بالحياة والخبرة بالشعر معاً ؛ مما طرحه نقاد القرن العشرين فى أوربا مثل إزراباوند وإليوت . يقول القيروانى وهو يمضى فى إلحاحه على المعنى :

« والبيت من الشعر كالبيت من الأبنية : قراره الطبع وسمكه الرواية ، ودعائمه العلم وبابه الدربة ، وساكنه المعنى ، ولاخير فى بيت غير مسكون » (ص٩٧) :

أما الطبع فالقيروانى يفرق فى كتابه بين الشاعر المطبوع والشاعر المصنوع أو بين الشعر المطبوع والشعر المصنوع .

وأما العلم والدربة فهما صنوا الخبرة بالحياة والخبرة بالفن (الشعر) ، وهما معاً يشكلان مرادفاً للثقافة . ولأن الشعر على هذا النحو فن صعب وطويل سلمه كما يقول الشاعر فإن ابن رشيق لا يغفل عن الإشارة إلى تلك الصعوبة بما يرويه من قول القائل : « عمل الشعر على الحاذق به أشد من نقل الصخر ! » .

ويعود ابن رشيق إلى مناقشة مقومات الشعر السابقة فيقول عن علاقة أولها بثالثها : أى علاقة اللفظ بالمعنى :

« اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم : يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهجنة عليه . . . وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك حظ أوفر . . . ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ ، وجريه فيه على غير الواجب قياساً على ما قدمت من أجواء الجسوم والأرواح ، فإن اختل المعنى كله وفسد بقى اللفظ مواتاً لا فائدة فيه ، وإن كان حسن الطلاوة فى السمع ، كما أن الميت لم ينقص من شخصه شىء فى رأى العين إلا أنه لا ينتفع به ولا يفيد فائدة . وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى ؛ لأنا لا نجد روحاً فى غير جسم ألبتة » (ص١٠٣ – ص١٠٤) .

أليست علاقة اللفظ بالمعنى هنا مساوية لما نقوله بالمصطلح الحديث : علاقة الشكل بالمضمون ؟ لقد ألح القيروانى كما رأينا على التحام الشكل بالمضمون وأكد ما بينهما من تكامل واتحاد ضروريين . وها هو ذا قد جسم منذ نحو ألف عام قضية شغل النقد الحديث بها عندنا وعند غيرنا على السواء . غير أننا نحب قبل الانتقال إلى قضية أخرى أن نتوقف قليلاً عند عبارتين :

أما العبارة الأولى فتقول : « شر الشعر ما سئل عن معناه » (ص١٧٥) وليس معنى ذلك كما قد يخيل إلينا لأول وهله أن المعنى فى بطن الشاعر كما قال البعض ، ولكن معناه فى الحقيقة الحسم الواضح لا ستقلال الشعر عن النثر ، وتعبير عما قال به المحدثون فى أوربا وأمريكا من أن القصيدة « تكون » ولا « تعنى » : أى أن لها كياناً واضحاً ومستقلاً لا يحتاج إلى التفسير بمقدار ما يحتاج إلى محاولة الاستجابة .

وأما العبارة الأخرى فتقول : « ليكن الشعر تحت حكمك ، ولا تكن تحت حكمه »

(ص١٨٤) ، وهذا بدوره مبدأ نقدى ألحّ عليه المحدثون حين نادوا بضرورة سيطرة الشاعر على أدواته والتمكن منها ؛ حتى لا تستعبده ، فيضطر أمام حاجات الوزن وضروراته مثلاً إلى الحشو والثرثرة .

ذلك ما يتضمنه الجزء الأول من هذا الكتاب ، أما جزؤه الآخر فيتضمن عدداً آخر من القضايا التى لم يتطرق الفساد إلى أحكامها عبر ألف عام أو نحو ذلك ، لأنها أحكام جاءت وليدة الخبرة العربية الطويلة بالشعر قبل ابن رشيق .

يقول القيروانى عن التكرار فى الشعر لفظاً أو معنى :

« اكثر ما يقع التكرار فى الألفاظ دون المعانى ، وهو فى المعانى دون الألفاظ أقل ، فإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعا فذلك الخذلان بعينه ، ولا يجب للشاعر أن يكرر اسماً إلا على جهة التشوق والاستعذاب ، إذا كان فى تغزل أو نسيب أو على سبيل التنبيه به والإشارة إليه بذكر . . . أو على سبيل التقرير والتوبيخ . . .أو فى معنى التكثير . . . أو على جهة الوعيد والتهديد إن كان عتاب موجع . . .

وأول ماتكرر فيه الكلام باب الرثاء لمكان الفجيعة وشدة الفرحة التى يجدها المتفجع ، وهو كثير . . . أو على سبيل الاستغاثة وهى فى باب المديح . . . ويقع التكرار فى الهجاء على سبيل الشهرة ، وشدة التوضيع بالمهجو » (ص ٧٠ – ٧٥) .

وهذه نظره سديدة للتكرار فى الشعر ، ولكننا سرعان ما نلتقى بعد ذلك وقضية أخرى على جانب كبير من الأهمية ، وهى قضية الوحدة العضوية فى القصيدة التى شغلت نقاد مدرسة الديوان عندنا وغيرهم فى مطلع هذا القرن على حين أنها كانت مطلباً نقدياً عربياً قديماً على الرغم من المحاولات الكثيرة للتملص منها . وهى أيضاً قضية متصلة فى الأساس بالقضية الأم السابقة . أعنى قضية الوحدة بين الشكل والمضمون . ولقد رأينا كيف وقف القيروانى من قضية الشكل والمضمون داعياً إلى اتحادهما ؛ فلا غرابة أن نراه الآن مؤيداً للوحدة العضوية فى القصيدة : فقد نقل عن الحاتمى قوله : « من حكم النسيب الذى يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجاً بما بعده من مدح أو ذم ، متصلا به ، غير منفصل عنه ؛ فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه فى صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون (تنقص) محاسنه ، وتعفى معالم جماله ، ووجدت حذاق الشعراء ، وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون من مثل هذه الحال احتراساً يحميهم من شوائب النقصان ، ويقف بهم على محجة الإحسان » (ص ص ١١١ – ١١٢) .

هذه خلاصة نظرية لرجل ولد فى أواخر القرن الرابع الهجرى ومات فى أواسط القرن الخامس .

ولكن قيل : إن ابن رشيق قد جمع هذه المبادئ والملحوظات ، وأنه صهر كثيراً من الآراء النقدية السابقة عليه دون الإشارة إلى مصادرها — إن ذلك كله لا يعنينا هنا فى الحقيقة بمقدار ما يعنينا أن نؤكد ما سبق أن أشرنا اليه من أن هذه التأملات هى حصيلة النظرة النقدية العربية السابقة على القيروانى من جهة ، وأنها تدل فى الوقت نفسه على ثقافته وحسن ذوقه وحساسيته البصيرة بالسديد والصائب من الرأى ، على الرغم من أن الكتاب نفسه قد اشتمل على كثير من الحشو والآراء الفجة أو — على الأقل — الآراء التى لم تتجاوز عصرها ؛ لتعيش بعده .

وليس يعنينا كذلك إلا أن نلقى الضوء على هذه الآراء باعتبارها سديدة وجادة بشكل مبكر ، وأنها سبقت الكثير من الآراء التى كدح العقل الأوربى فى سبيل التوصل إليها وإقرارها فى هذا القرن . وربما يكون العقل الأوربى قد احتك بهذه الآراء نفسها أو بتفسيرات لها : إما بشكل غير مباشر عن طريق الأندلس ، وإما بشكل مباشر عن طريق ابن رشيق الذى يروى تاريخه أنه هاجر هو نفسه فى أخريات حياته إلى صقلية حيث مات بها بعد نكبة القيروان .